طلحة بن عبيد الله

صقر يوم أحد

﴿مِنَ المؤمنين رجالٌ صَدَقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قَضَى نَحْبَهُ، ومنهم مَنْ يَنتظِرُ، وما بَدَّلُوا تبديلا﴾...

تلا الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الآية الكريمة، ثم استقبل وجوه أصحابه، وقال وهو يشير إلى «طلحة»:

«مَنْ سَرّه أن ينظر إلى رجل يمشى على الأرض، وقد قَضَى نحْبَه، فلْينظر إلى طلحة»..!!

ولم تكن ثَمَّة بُشرى يتمناها أصحاب الرسول، وتطير قلوبهم شوقًا إليها أكثر من هذه التى قلدها النبى طلحة بن عبيد الله..

لقد اطمأن إذن إلى عاقبة أمره ومصير حياته.. فسيحيا،

ويموت، وهو واحد من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ولن تنالَه فِتنة، ولن يدركه لُغوب..

ولقد بشَّره الرسول بالجنة، فماذا كانت حياة هذا المبَشَّر الكريم..؟؟

* * *

لقد كان فى تجارة له بأرض بُصْرى حين لقى راهبًا من خيار رهبانها، وأنبأه أن النبىّ الذى سيخرج فى بلاد الحرَم، والذي تنبأ به الأنبياء الصالحون قد أهلَّ عصره وأشرقت أيامهُ..

وحذَّر «طلحة» أن يفوته موكبه، فإنه موكبُ الهدى والرحمة والخلاص..

وحين عاد «طلحة» إلى بلده «مكة» بعد شهور قضاها فى بُصْرَى وفى السَّفر، ألْفى بين أهلها ضجيجًا.. وسمعهم يتحدثون كلما التقى بأحدهم، أو بجماعة منهم عن «محمد الأمين»... وعن الوحى الذى يأتيه.. وعن الرسالة التى يحملها إلى العرب خاصة، وإلى الناس كافة..

وسأل «طلحة» أول ما سأل عن «أبى بكر» فعلم أنه عاد مع قافلته وتجارته من زمن غير بعيد، وأنه يقف إلى جوار «محمد» مؤمنًا منافحًا، أوَّابًا...

وحدَّث طلحة نفسه: محمد، وأبو بكر...؟؟

تالله لا يجتمع الاثنان على ضلالة أبدًا[1]

ولقد بلغ «محمد» الأربعين من عمره، وما عهدنا عليه خلال هذا العمر كذبة واحدة.. أفيكذب اليوم على الله، ويقول: إنه أرسلنى وأرسل إلى وَحْيًا..؟؟

هذا هو الذى يصعبُ تصديقه..

وأسرع طلحةُ الخُطَى مُيَمِّمًا وجهه شطر دار أبى بكْر..

ولم يطل بينهما الحديث، فقد كان شوقه إلى لقاء الرسول صلى الله عليه وسلم ومبايعته أسرع من دقات قلبه..

فصحبه أبو بكر إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، حيث أسلم وأخذ مكانه فى القافلة المباركة..

وهكذا كان «طلحة» من المسلمين المبكرين.

وعلى الرغم من جاهه فى قومه، وثرائه العريض، وتجارته الناجحة فقد حمل حظه من اضطهاد قريش، إذ وُكل به وبأبى بكْر نوفلُ بن خويلد، وكان يدعى «أسد قريش»، بَيْدَ أن اضطهادهما

---

(١) راجع كتابنا «وجاء أبو بكر».

لم يطل مدَاه، إذ سرعان ما خجلت «قريش» من نفسها، وخافت عاقبة عملها...

وهاجر «طلحة» إلى «المدينة» حين أمر المسلمون بالهجرة، ثم شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم - عدا غزوة بدر - فإن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد ندبه ومعه سعيد بن زيد لمهمة خارج المدينة..

ولما أنجزاها ورجعا قافلين إلى «المدينة»، كان النبى وصحبه عائدين من غزوة بدر، فآلم نفسيهما أن يفوتهما أجر مشاركة الرسول صلى الله عليه وسلم بالجهاد فى أولى غزواته.

بيد أن الرسول أهدى إليهما طمأنينة سابغة، حين أنبأهما أن لهما من المثوبة والأجر مثل ما للمقاتلين تمامًا، بل وقسم لهما من غنائم المعركة مثل من شهدوها.

* * *

وتجىء غزوة «أحد» لتشهد كل جبروت قريش وكل بأسها حيث جاءت تثأر ليوم «بدر» وتؤمِّن مصيرها بإنزاله هزيمة نهائية بالمسلمين، هزيمة حسبتها قريش أمرًا ميسورًا، وقَدَرًا مقدورًا..!!

ودارت حرب طاحنة سرعان ما غطت الأرض بحصادها

الأليم... ودارت الدائرة على المشركين..

ثم لمارآهم المسلمون ينسحبون وضعوا أسلحتهم، ونزل الرُّماة عن مواقعهم ليحوزوا نصيبهم من الغنائم...

وفجأة عاد جيش قريش من الوراء على حين بغتة، فامتلك ناصية الحرب وزمام المعركة..

واستأنف القتال ضراوته وقسوته وطحنه، وكان للمفاجأة أثرها فى تشتيت صفوف المسلمين..

وأبصر «طلحة» جانب المعركة الذى يقف فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فألفاه قد صار هدفًا لِقُوَى الوثنية والشرك، فسارع نحو الرسول...

وراح - رضى الله عنه - يجتاز طريقًا ما أطوله على قصره...! طريقًا تعترض كل شبر منه عشرات السيوف المسعورة، وعشرات من الرماح المجنونة!!

ورأى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم من بعيد يسيل من وجنته الدم، ويتحامل على نفسه، فجن جنونه، وقطع طريق الهول فى قفزة أو قفزتين وأمام الرسول وجد ما يخشاه.. سيوف المشركين تلهثُ نحوه، وتحيط به تريد أن تناله بسوء..

ووقف طلحة كالجيش اللجب، يضرب بسيفه البتَّار يميناً وشمالاً..

ورأى دم الرسول الكريم ينزف، وآلامه تئن، فسانده وحمله بعيدا عن الحفرة التى زلَّتْ فيها قدمه.

كان يساند الرسول عليه الصلاة والسلام بيسراه وبصدره، متأخراً به إلى مكان آمن، بينما يمينُه - بارك الله يمينَه - تضرب بالسيف وتقاتل المشركين الذين أحاطوا بالرسول، وملئوا دائرة القتال مثل الجراد..!!

ولندع الصدِّيق أبا بكر رضى الله عنه يصف لنا المشهد.. تقولُ عائشة:

«كان أبو بكْر إذا ذُكِرَ يوم أحد يقولُ: ذلك كله كان «يوم طلحة».. كنتُ أولَ من جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فقال لى الرسول ولأبى عبيدة بن الجراح: دُونَكُم أخاكم..

«ونظرنا، وإذا به بضع وسبعون بين طعنة.. وضرب ورَمْية.. وإذا أصبعه مقطوعة.. فأصْلحنا من شأنه».

* * *

وفى جميع المشاهد والغزوات، كان طلحة فى مقدمة الصفوف يبتغى وجه الله ويفتدى راية رسوله.

ويعيش «طلحة» وسط الجماعة المسلمة، يعبد الله مع العابدين، ويجاهد فى سبيله مع المجاهدين، ويُرْسى بساعديه مع سواعد إخوانه قواعد الدين الجديد الذى جاء ليخرج الناس - جميع الناس - من الظلمات إلى النور.

فإذا قضى حق ربه، راح يضرب فى الأرض، ويبتغى من فضل الله مُنَمِّيًا تجارته الرابحة، وأعماله الناجحة..

فقد كان «طلحة» رضى الله عنه من أكثر المسلمين ثراء، وأنماهم ثروة..

وكانت ثروته كلها فى خدمة الدين الذى حمل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم رايته..

كان يُنفق منها بغير حساب..

وكان الله يُنَمِّيهَا له بغير حساب!

لقد لقَّبه رسول الله صلى الله عليه وسلم بـ «طلحة الخير» و«طلحة الجود» و«طلحة الفيَّاض» إطراءً لجوده الـمُفيض..

وما أكثر ما كان يخرج من ثروته مرة واحدة، فإذا الله الكريم يردها إليه مضاعفة..

تُحدثنا زوجته «سُعدى بنت عوف» فتقول:

«دخلتُ على طلحة يومًا فرأيته مهمومًا، فسألته: ما شأنك..؟؟

فقال: المال الذى عندى.. قد كثر حتى أهَمَّنى وأكْرَبنى...

وقلت له: ما عليك.. اقْسِمْه..

فقام ودعا الناس، وأخذ يقسمه عليهم حتى ما بقى منه درهم».

ومرة أخرى باع أرضًا له بثمن مرتفع، ونظر إلى كَوْمة المال ففاضت عيناه من الدمع ثم قال:

«إن رجلًا تبيت هذه الأموال فى بيته لا يدرى ما يطرق من أمر، لمغرور بالله».

ثم دعا بعض أصحابه وحمل معهم أمواله هذه، ومضى فى شوارع المدينة وبيوتها يوزعها، حتى أسْحَرَ وما عنده منها درهم..!!

ويصف جابر بن عبد الله جود طلحة فيقول:

«ما رأيتُ أحدًا أعْطَى لجزيل مال من غير مسألة، من طلحة بن عبيد الله».

وكان من أكثر الناس برًّا بأهله وبأقربائه، فكان يعولهم جميعًا على كثرتهم..

وقد قيل عنه فى ذلك:

«... كان لا يدع أحدًا من بنى تَيْم عائلًا إلا كفاه مَئونته، ومئونة عياله..

«وكان يزوج أيـاماهُم، ويخـدِم عائلهم، ويقضى دين غارِمهم».

ويقول السائب بن زيد:

«صَحِبْتُ طلحة بن عُبيد الله فى السَّفَر والحَضر فما وجدت أحدًا، أعَمَّ سخاء على الدرهم، والثوب، والطعام من طلحة»..!!

وتَنْشِبُ الفتنة المعروفة فى خلافة عثمان رضى الله عنه.

ويؤيد طلحة حجة المعارضين لعثمان، ويزكى معظمهم فيما كانوا ينشدونه من تغيير وإصلاح..

أكان بموقفه هذا، يدعو إلى قتل عثمان، أو يرضى به..؟؟

كلا...

ولو كان يعلم أن الفتنة ستتداعى حتى تتفجر آخر الأمر حقدًا مخبولاً، ينفس عن نفسه فى تلك الجناية البَشعة التى ذهب ضحيتها «ذو النورين» عثمان رضى الله عنه.

نقول: لو كان يعلم أن الفتنة ستتمادى إلى هذا المأزق والمنتهى لقاومها، ولقاومها معه بقية الأصحاب الذين آزروها أول أمرها باعتبارها حركة مُعارضة وتحذير، لا أكثر..

على أن موقف طلحة هذا، تحوّل إلى «عُقدة حياته» بعد الطريقة البشعة التى حوصر بها عثمان وقُتِلَ، فلم يكد الإمام علىّ يتقبل بيعة المسلمين بالمدينة ومنهم طلحة والزبير، حتى استأذنه الاثنان فى الخروج إلى مكة للعُمْرة.

ومن مكة توجها إلى البصرة، حيث كانت قوات كثيرة تتجمع للأخذ بثأر عثمان..

* * *

وكانت «وقعة الجمل» حيث التقى الفريق المطالب بدم عثمان، والفريق الذى يناصر عليًّا.

وكان علىّ كلما أدار خواطره على الموقف العَسِر الذى يجتازه الإسلام والمسلمون فى هذه الخصومة الرهيبة، تنتفض همومه، وتهطل دموعه، ويعلو نشيجه..!!

لقد اضْطُر إلى المأزق الوَعر.

فبوصفه خليفة المسلمين، لا يستطيع، وليس من حقه أن يتسامح تجاه أى تمرد على الدولة، أو أى مناهضة مسلحة للسلطة المشروعة..

وحين ينهض لقمع تمرد من هذا النوع، فإن عليه أن يواجه إخوانه وأصحابه وأصدقاءه، وأتباع رسوله ودينه، أولئك الذين طالما قاتل معهم جيوش الشرك، وخاضوا معاً تحت راية التوحيد معارك صَهَرتهم وصَقَلتهم، وجعلت منهم إخوانًا بل إخوة مُتعاضدين..

فأىُّ مأزق هذا..؟ وأىُّ ابتلاء عسير..؟

وفى سبيل التماس مَخرج من هذا المأزق، وصَوْن دماء المسلمين لم يترك «الإمام علىّ» وسيلة إلا توسَّل بها، ولا رجاء إلا تعلق به.

ولكن العناصر التى كانت تعمل ضِدَّ الإسلام، وما أكثرها،

والتى لقيت مصيرها الفاجع على يد الدولة المسلمة، أيام عاهلها العظيم عمر، هذه العناصر كانت قد أحكَمت نَسْج الفتنة، وراحت تُغذيها وتُتابع سيرها وتَفاقُمَها...

* * *

بكى عليٌ بكاء غزيرًا، عندما أبصر أُم المؤمنين «عائشة» فى هودجها على رأس الجيش الذى يخرج الآن لقتاله...

وعندما أبصر وسط الجيش طلحة والزبير، حوَارِيَّىْ رسول الله..

فنادى طلحة والزبير ليخرجا إليه، فخرجا حتى اختلفت أعناق أفراسهم..

فقال لطلحة:

«يا طلْحَة، أجئتَ بِعُرس رسول الله تقاتلُ بها، وخبأت عُرْسَك فى البيت»..؟؟

ثم قال للزُّبَيْر:

«يا زُبَيْر:.

«نشَدْتُكَ الله، أتذكر يوم مَرَّ بِكَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بمكان كذا، فقال لك: يا زبير، ألا تُحِبُ عليًّا..؟؟

«فقلتُ: ألَا أحِبُّ ابنَ خالى، وابن عمى، ومَنْ هو عَلَى دينى..؟؟

«فقال لك: يا زُبَيْر، أما والله لَتُقاتِلَنّه وأنت له ظالم»..!!

قال الزبير رضى الله عنه: نعم أذكرُ الآن، وكُنتُ قد نسيته، والله لا أقاتلك..

وأقْلَع الزبير وطلحة عن الاشتراك فى هذه الحرب الأهلية..

أقْلَعا فَوْرَ تَبيُّنِها الأمر، وعندما أبصرا «عمار بن ياسر» يُحاربُ فى صف عَلِىّ، وتذكَّرا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمار:

«تقتُلك الفِئة الباغية»...

فإن قُتِلَ «عمار» إذن فى هذه المعركة التى يشترك فيها طلحة، فسيكون طلحة باغيًا..

* * *

انسحب طلحة والزبير من القتال، ودفعا ثمن ذلك الانسحاب حياتهما، ولكنهما لَقِيا الله قريرة أعينهما بما منَّ عليهما من بصيرة وهُدى..

أما الزبير فقد تعقَّبه رجل اسمه «عمرو بن جرموز» وقتله غيلة وغدرًا وهو يصلى..!!

وأما «طلحة» فقد رماه مروان بن الحكم بسهم أوْدَى بحياته..

* * *

كان مقتل «عثمان» قد تشكَّل فى نفسية طلحة، حتى صار - كما قلنا من قبل - عُقدة حياته..

كل هذا، مع أنه لم يشترك فى القتل ، ولم يُحرض عليه، وإنما ناصَر المعارضة ضدَّه، يوم لم يكن يبدو أن المعارضة ستتمادى وتتأزّم حتى تتحول إلى تلك الجريمة البشعة..

وحين أخذ مكانه يوم الجمل، مع الجيش المعادى لعلى بن أبى طالب والمطالب بدم عُثمان، كان يرجو أن يكون فى موقفه هذا كَفَّارة تُريحه من وطأة ضميره..

وكان قبل بدء المعركة يدعو ويَضرع بصوت تخنقه الدموع، ويقول:

«اللهم خُذ منى لعثمان اليوم حتى ترضى»..

فلما واجهه على هو والزبير عَلَى النحو الذى أسْلَفْنا، أضاءت

كلمات «على» جوانب نفسيهما، فرأيا الصواب وتركا أرض القتال..

بيد أنَّ الشهادة كانت مَذْخُورَةً لهما..

أجَلْ.. كانت الشهادة من حظ طلحة يدركها وتدركه أيَّان يكون.. ألم يقل الرسول عنه:

«هذا مِمَّن قَضَى نَحْبه، وَمَنْ سرَّهُ أن يرى شهيدًا يمشى عَلَى الأرض، فلينظر إلى طلحة»..؟؟

لقى الشهيد إذن مصيره المقدور والكبير، وانتهت «وقعة الجمل»..

وأدركت أم المؤمنين «عائشة» أنها تعجلت الأمور فغادرت البصرة إلى البيت الحرام فالمدينة، نافضة يديها من هذا الصراع، وزوَّدها الإمام على فى رحلتها بكل وسائل الراحة والتكريم..

* * *

وحين كان - على - يستعرض شهداء المعركة راح يصلى عليهم جميعًا، الذين كانوا معه، والذين كانوا ضدَّه...

ولما فرَغ من دفن طلحة، والزبير، وقف يودعهما بكلمات جليلة، اختتمها قائلا:

«إنى لأرجو أن أكون أنا، وطلحة ، والزبير، وعُثمان من الذين قال الله فيهم: ﴿ونَزعْنا مـا فى صُدُورهم مِنْ غِلٍّ إخوانًا عَلَى سُرُر مُتقابلين﴾..

ثم ضمّ قبريهما بنظراته الحانية الصافية الآسية وقال:

«سمعت أُذُناى هاتان رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«طلحة والزبير، جاراىَ فى الجنة»...

* * *